محاضرة في أنثروبولوجيا الاتصال

د. باغور يمينة (جامعة تلمسان)

المدرسة البنيوية ومستويات التواصل

Le constructivisme en anthropologie de la communication

مقدمة: البنيوية تيار فكري ومنهج علمي يستعمل في العلوم الاجتماعية ظهر في أوائل القرن العشرين بفرنسا وروسيا على يد (فرديناند دو سوسير) ومدرسة (براغ) ومدرسة (موسكو) ، وبعد الحرب العالمية الثانية في 1949 قام الأنثروبولوجي (كلود ليفي شتراوس) باستعارة مفاهيم (دو سوسير) واستخدمها في مجال تخصصه معتمدا على فكرة أن الهياكل العميقة غير القابلة للتغيير موجودة في جميع الثقافات وبالتالي فإنَ جميع الممارسات الثقافية لها مرادفات في الثقافات الأخرى إذن كل الثقافات متكافئة ومتعادلة، وفي علم النفس يعتبر (جان بياجيه) صاحب النظرية الأكثر شهرة في البنائية والتي تقوم على أنَ الذكاء ليس فطريا بل يتم بناؤه.

تعريف المدرسة البنيوية: (نسبة للبنية) تنقسم البنائية إلى مدارس فكرية مختلفة اعتمادا على التخصصات المعرفية لكنها أوَل ما ظهرت كانت في مجال اللسانيات وهي تقوم على النظر في البنية الداخلية للنصوص وما تشمله من رموز ودلالات وهي تستند إلى خطوتين أساسيتين هما التفكيك والتركيب (المدرسة البنيوية هي أول مدرسة لسانية حديثة، وهي تقوم على مفهوم أنَ اللغة هي بناء أو هيكل وحداته مستقلة ذاتيا لكنها تتحد من حيث القيم بالعلاقات الداخلية فيما بينها).

البنيوية اللغوية: هي منهج يأخذ اللغة على أنها بناء، وتحليل النص اللغوي بالنسبة للمدرسة البنيوية يعتمد على قاعدتين مهمتين هما استقلالية النص عن أيَ ملابسات خارجية وتشابك وحداته وترابطها داخليا، فالمدرسة البنيوية تدرس اللغة في ذاتها ولذاتها.، اللغة في البنيوية هي نظام وظيفي يتكون من وسائل تعبيرية تمكَن الإنسان من التعبير والتواصل وكل البنى اللغوية على المستويات جميعا (الصوتية والنحوية والدلالية) محكومة بالوظائف التي تؤديها في المجتمع ، واللغة أيضا حقيقة واقعية ملموسة فهي تتأثَر بعوامل غير لغوية كالوسط الاجتماعي والمرسل والمستقبل لهذا يجب التمييز بين أنماط اللغات في المجتمعات (لغة الأعمال الأدبية- لغة الشارع- لغة البحوث العلمية...) وأخيرا فإن اللغة

تشمل التجلي الذهني والتجلي العاطفي لدى الإنسان لذلك يجب التمييز بين أشكال اللغة التي تعنى بتوصيل الأفكار وتلك التي تعنى بتوصيل العواطف.

المنهج البنيوي في التواصل: تفترض البنائية أنَ التفاعلات والخطابات والتجمعات الاجتماعية يمكن فهمها بشكل أفضل باعتبارها أنظمة أو هياكل مستقلة نسبيا.

منذ الستينيات من القرن الماضي طوَرت الدراسات الثقافية مفهوما للممارسات الثقافية والحياة اليومية والنظام الاجتماعي كنصوص يجب قراءتها وتفسيرها، وبرزت فكرة أنَ الثقافة والاتصال هما مصطلحان يمثلان وجهتا نظر أو طريقتان للتمثلات الخاصة بالعلاقات الإنسانية المنتظمة والمهيكلة ففي مصطلح "الثقافة" الشكل موضوع على البنية وفي مصطلح "الاتصال" الشكل موضوع على العملية وبهذا يصبح الاتصال تطبيق فوري للثقافة أي أن الاتصال هو الجانب النشط في البنية الثقافية من خلاله تتجسد الثقافة والأنماط الهيكلية للثقافة.

البنيوية في بحوث الأنثروبولوجيا:

ولد (كلود ليفي شتراوس) مؤسس البنيوية في الأنثروبولوجيا ببروكسل سنة 1908، درس الفلسفة وعلم الاجتماع وتأثَر بمناهج الأنثروبولوجيين الأمريكيين كروبير ولووي مما ساعده على التحرَر من المركزية الأوربية، من أشهر مؤلفاته (البنيات الأولية للقرابة) و (الأسطوريات أو مقدمة لعلم الميثولوجيا) و (الاسطورة والمعنى) و(مدارات حزينة)، توفي سنة 2009.

قام كلود ليفي شتراوس باستعمال البنيوية في تحليل الممارسات الثقافية والمعتقدات واللغات وسعى إلى توحيد التجارب المختلفة للمجموعات الثقافية التي عاشت في أنظمة مختلفة وتوصَل إلى أنَ جميع البشر متساوون ومتشابهون وبأنَ العقل الإنساني في كل زمان ومكان متشابه ويمتلك نفس القدرات والإمكانيات، ومن المجالات التي ركَز شتراوس على دراستها مجالي القرابة والأساطير.

1/الأسطورة

لعل التطبيق الأكثر تفصيلا للمبادئ البنيوية هو ذلك الذي قام به كلود ليفي شتراوس عندما قام بشرح الأساطير من حيث وحداتها المكونة لها قياسا على الجمل، فالأساطير عند شتراوس عبارة عن كيانات خطابية وإدراكية يمكن فهمها باعتبارها بنى وهياكل ثقافية يتم

التعبير عنها في الخطاب وتبادلها في التواصل وتنفيذها في البنى الاجتماعية، ومن بين النتائج التي توصَل إليها شتراوس أنَ العقل البدائي (وإن كان لا يحبذ استخدام كلمة بدائي وتعويضها بمفهوم المجتمعات غير الكتابية) الذي استخدم الأسطورة والمجاز في تشكيل ظواهره الثقافية لا يختلف عن العقل المتحضر (رغم اختلاف الاتجاهات التي سلكها كلاهما إلاَ أنَهما كانا يسعيان لنفس الهدف)، وبالنسبة لشتراوس فإنَ الأسطورة هي لغة لا واعية يستخدمها المجتمع للتعبيرعن انشغالاته الوجودية وهي نص مليئ بالرموز والمجازية، وقد شبهَها شتراوس بالموسيقى معتبرا الأسطورة والموسيقى امتدادين في اتجاهين مختلفين لأصل واحد هو اللغة ويقول شتراوس بأنَ الوحدة اللغوية تتكوَن من جزئين هما الصوت والمعنى (الموسيقى هي الصوت والأسطورة هي المعنى) كما اعتبر الموسيقى الكلاسيكية الغربية إعادة تمثيل للأسطورة التي قضى عليها العقل الحديث.

2/ القرابة .

بالنسبة لشتراوس فإنَ نظام القرابة ينشأ كاللغة على مستوى العلاقات الثنائية (زوج/ زوجة)(ابن/ أب) (أخ/ أخت) والقرابة مثل اللغة عبارة عن وسيلة اتصال (القرابة لغة مادامت تتضمن قيام نمط اتصال معيَن بين الأفراد والجماعات، وقواعد القرابة هي مجموعة من العمليات التي ترمي إلى تأمين نمط من أنماط التواصل بين الأفراد).

البنيوية وأنثروبولوجيا الاتصال (النهج الكرونولوجي حسب إيف وينكن):

لدينا مفهومان رئيسيان للاتصال هما نسخة التلغراف والنسخة الأوركسترالية

1/ التصور المبراقي: في 1949 اقترح (شانون) و(ويفر) نموذجا للتواصل يعرف بالنظرة المبراقية

كان (شانون) مهندسا في مختبرات بيل تلفون يفكر في صياغة نظرية رياضية للتلغراف لكن مساعده (ويفر) ذهب أبعد من ذلك فهو يقول . "**سنستعمل كلمة (تواصل) هنا بمعنى واسع جدا يتضمن كل العمليات التي عبرها يستطيع أي عقل التأثير في عقل آخر وهذا يشمل طبعا ليس اللغة الكتابية والمنطوقة فقط بل أيضا الموسيقى والفنون الجميلة والمسرح والرقص وكل سلوك إنساني في الواقع**" (وينكن،2001 ، 29)

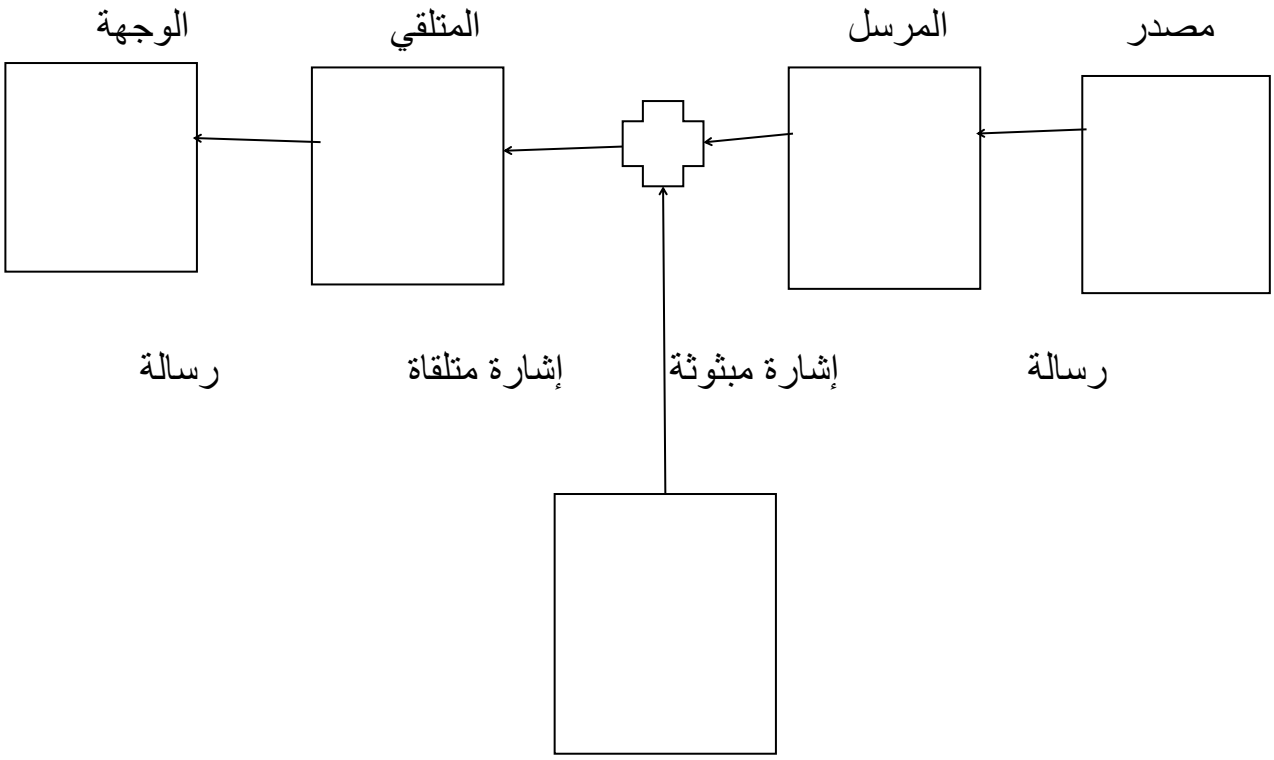

مصدر التشويش

بعد ذلك طرح (ويفر) ثلاث مستويات من المشاكل المتعلقة بالتواصل:

ـ مستوى 1/ كيف يمكن ان تنقل رموز التواصل مضبوطة؟ (مشكلة تقنية)

ـ مستوى2/ بأيَة دقَة تنقل رموز التواصل المعنى المطلوب؟ (مشكلة دلالية)

ـ مستوى 3/ بأيَة فعالية يؤثر المعنى المحصَل في سير المعنى المرغوب؟ (مستوى نجاعة)

وقد لقيت أعمال (شانون) و(ويفر) انتشارا واسعا حيث شاركا في مجموعة من الندوات الدولية حول مفهوم (السيبرنطيقا) رفقة باحثين من تخصصات مختلفة .

<u>الأبعاد السبعة للتواصل المبراقي</u>: لتشغيل نموذج شانون وويفر هناك 7 مبادئ أساسية هي:

- يبدأ التواصل من داخل فرد وينتهي داخل فرد آخر وكل فرد عبارة عن وحدة مكوَنة من جسد وعقل (الأول يحتوي الثاني) وعليه فإنَ كل فرد عبارة عن علبة غامضة مغلقة ومعزولة بمساحة ما عن الفرد الآخر ، لكن كل فرد يمكنه الكشف عن أفكاره للآخر من خلال استعماله للغة وبهذا فهو يقطع المسافة التي تفصله عن الآخر (اللغة هنا هي وسيلة تواصل ونقل الأفكار)

- الكلمات تنتقل من عقل لآخر عن طريق الفم والأذن وأيضا عن طريق اليد والعينين والكلمات هنا تشبه العلب الصغيرة التي حين تنفتح لإعطاء المعلومة قد يحصل تشويش بسبب إقحام بعض الحركات الجسدية لا إرادية وبعض المشاعر التي تعكر السير العادي لمسار النقل هذا.

- التواصل اللغوي عقلاني وإرادي وهو من خصائص الإنسان يشترط فيه وجود شخصين على الأقل والشخص المرسل هو الذي يؤسس عملية التواصل وليس الشخص المتلقي.

- إذا كان التواصل عملية إرادية وواعية يمكنه أن ينجح أو يفشل (قد يكون جيدا أو سيئا، عاديا أو مرضيا، ناجعا أو مشوَشا) ويمكنه أيضا ان يصحَح ذاته.

- التواصل سلسلة من مقاطع (مرسل ←متلقي) يتبادلان الأدوار خطيا وبالتتالي، فتلقي رسالة يولد بعث رسالة ثانية على أساس المخطط التقليدي (مثير ← إستجابة / فعل← رد فعل).

- كما في المختبر يمكن للباحث أن يعاين مقاطع التواصل وأن يقدَم فرضيات وأن يأخذ مكانة خارج النظام المدروس ليبحث عن تحييد التأثيرات المتَصلة لمعيانته للنظام بواسطة وسائل تقنية وإحصائية.

-يمكن إدراك نموذج التواصل الفردي بواسطة التلغراف (المبراق): شخص (أ) يقرَر إرسال رسالة إلى شخص (ب)، تشفَر الرسالة وترسل عبر موجات، يتم استقبالها وتفك شفرتها، إمَا تفهم أو لا تفهم، يمكن للشخص (ب) أن يبعث بدوره رسالة إلى الشخص (أ)

عملية الإبراق إذن عملية لغوية قصدية وخطية ومحدودة في الزمان والمكان وعليه فإنَ البرقية تكون صريحة ودالَة وإخبارية.

<u>بروز اتصال جديد:</u> في الخمسينات من القرن الماضي قام أنتروبولوجيون وأطباء نفسيون بناء على الأبحاث التي قاموا بها على الجوانب غير اللفظية للتواصل (التقريبية والحركية) بوضع نموذج بديل يفهم حقيقة الإتصال الإنساني ليس كأخذ ورد للمعنى المبني مسبقا (بناء الرسالة، الإرسال، الإستقبال) ولكن كتفصيل مشترك للمعنى المتحصَل عليه من خلال التعاون المتزامن بين المتفاعلين.

1/ <u>المسافة في التواصل (البروكسيمكس):</u>يقصد به دراسة التواصل بين الأشخاص من خلال المسافات التي نحتفظ بها بيننا أو من خلال الطريقة التي يتم بها تنظيم المساحات، وفي مثل هذه العلاقة يستحضر (ادوارد هول) هذه المساحة الشخصية باعتبارها بعدا خفيا للتواصل ويقدم لنا (هول) أيضا مفهوما آخر هو المساحة الشخصية الناشئة عن الأعراف

الاجتماعية التي تحكم تفاعلاتنا وفي الوقت نفسه يستحضر (إرفين غوفمان) منطقة من الذات يسعى كل فرد إلى تنظيمها والحفاظ عليها.

2/ الحركة في التواصل (الإيماءة والحركية): الحركة مثل المسافة فهي عنصر تواصل لا ينفصل في الاتصال مع الاخر.

في 1956 درس (غريغوري باتسون) و(راي بيردويستل) لقطات من فيلم (دوريس) الذي قاموا بتصويره من قبل حيث عمدوا إلى إجراء تحليل ثلاثي (نفسي ولغوي وحركي) للقطات معينة من الفيلم بما في ذلك (مشهد السيجارة الشهير) ويتضمن ذلك على وجه الخصوص تسليط الضوء على التزامن الاستثنائي الضروري لدى شخصين عند انجاز لفتة بسيطة: دون تبادل كلمة واحدة رجل يشعل عود ثقاب ليشعل النار لامراة... سوف يسلط (بيردويستل) الضوء خلال هذا العمل على مفهوم التزامن التفاعلي.

دائما في هذا الاتجاه يمكن دراسة التواصل بين الأشخاص من زاوية كل ماهو من ترتيب النطق ولكنه لا يتعلق بالكلام كتقلبات الصوت وتطهير الحلق والصمت باختصار كل ما يصاحب الكلام ولا يمكن تحليله من طرف اللسانيات أو علوم اللغة.

باختصار في الستينيات كان هناك تقارب بين مجموعة من الباحثين (غريغوري باتسون ادوارد هول راي بيردويستل) في مقاربة نظامية للتواصل وقرروا تفكيك ودراسة العلاقات بين الأشخاص إلى سلسلة من الأساليب أو الطرائق أو القنوات، ومن تمَ فقد طوَروا نموذجا متعدد القنوات للاتصال مما يوضَح أنَ فعل الاتصال أكثر تعقيدا بشكل لا نهائي وأكثر ثراء مما اقترحته نظرية شانون.

2/ تصور الجوقة الموسيقية (التصور الأركسترالي): من بين الباحثين المتبنَين للتواصل الأوركستري نجد (راي بيردويستل) و(غريغوري باتيسون) وكلاهما من مدرسة (بالو آلتو)، يشرح (بيردويستل) هذا النموذج للتواصل ويوضَح **أنَنا كأفراد نحن جميعا رجال أوركيسترا لأنَنا جميعا نعزف على عدَة آلات موسيقية في وقت واحد، نحن نلعب بالكلمات والإيماءات والمساحة التي نبنيها والوقت والصمت والملابس التي نرتديها والتي تعتبر ناقلات تواصل مهمة وهذه اللعبة مرتبة بشكل مثالي. هذه القنوات المختلفة للاتصال تعمل بتناسق ويتم استخدامها بشكل متزامن** (وينكن،2005، 3)

كما يرى (بيردويستل)أنَ الجسم يمكنه أن يتصرَف مثل الذاكرة ويضرب (إيف وينكن) مثالا على ذلك: في خطاب ما قد أذكر مؤلفا وأضع تحته خطا وأربط هذا الاقتباس بإشارة

بذراعي اليمنى ثم أستشهد بمؤلف آخر عن طريق فعل الشيء نفسه بذراعي اليسرى وإذا عدت للمؤلف الأول فسوف أطلب بشكل غريزي ذراعي اليمنى مرة أخرى.

كما يوضح (بيردويستل) كيف يمكن استخدام الشكل والإيماءة في التكامل وأيضا في الاستبدال لجعل التواصل أكثر فاعلية ولشرح هذا المفهوم يضرب (إيف وينكن) المثل الآتي: في البحث عن صياغة أفكاري قد أخفض نظري ولا أنظر إلى محاوري لكن إيماءة اليد تتولى زمام الأمور وتحافظ على علاقتي مع الجمهور في اللحظة التي أتمكَن فيها من التعبير عن فكرتي تعود النظرة التي كانت تطفو قليلا بصراحة إلى المحاور إنها الطريقة التي أقول من خلالها للجمهور بأنَي أنظر إلى الأسفل لكن لا تفهني خطأ فأنا لا أزال منخرطا في التفاعل معك ولن أتخلى عنك.

فسَر (بيردويستل) هذه التعديلات الدقيقة على أنَها قدرتنا على أن نكون أوركيسترا رجل واحد وهذا يعني تنشيط جميع سجلات التواصل لدينا في وقت واحد.

أمَا بالنسبة لغريغوري باتيسون فإنَ التواصل لا يتعلق فقط بإرسال رسائل لغوية صريحة ومقصودة بل يدمج كل العمليات التي يحصل من خلالها التأثير والتأثَر المتبادلين بين المتواصلين بل ومن تلقي المتلقي لانطباعات من نفسه ومن الأحداث ومن المحيط ، وإذا تصوَر الملاحظ الأشياء بصفة علائقية وممنهجة (هيكلية أو نظامية) فإنَ التواصل يصبح مشكلا مركزيا لكل بحث علمي وهذا يحيلنا إلى أنَ الإنسان مجبر بيولوجيا على التواصل ويشرح إيف وينكن ذلك فيقول: **أعضاؤنا الحسيَة هي في استنفار دائم وتسجَل باستمرار الإشارات الملتقطة، في المقابل الأعضاء المستشارة لا تعرف الراحة وترسل لنا باستمرار رسائل نحو العالم الخارجي وبقدرؤ ما كانت الطريقة التي يستجيب بها فرد لأحداث مشاهدة يتطلب ذلك إرسال رسائل نحو الأعضاء المرسلة الطرفية فنظام الاعضاء الداخلي يتصور في الحقيقة كجزء من النظام البيشخصي بل كفوق شخصي (ثقافي)** (بن معمر،2022،104)

وعليه حاول (باتيسون) التمييز بين 4 مستويات تبعا لمجال العلاقات التي يعتبرها الملاحظ الخارجي : داخل شخصي (ينحصر المجال في الذات) وبيشخصي (بين شخصين اثنين) وجماعي (عدة أشخاص) وثقافي (أشخاص كثيرين)

<u>مستويات التواصل:</u>

1/ الاتصال الشخصي: عملية اتصالية تحدث بين الشخص وذاته أو نفسه، يرتبط هذا المستوى من التواصل بالشعور والإدراك والتعلَم وأشار علماء النفس إلى أنَ الاتصال الذاتي يحدث داخل عقل الفرد ويتضمن أفكاره وتجاربه فالفرد يرى نفسه ويحاسبها

ويناقشها ويحاورها ويحبها ويكرهها ويرضى عنها ويقول جورج ميد بأنَ الاتصال الذاتي هو البداية لفهم الاتصال مع الآخرين.

2/ الاتصال بيشخصي:هو اتصال مباشر بين شخصين وجها لوجه تستخدم فيه الحواس والكلام المنطوق والمكتوب

3/ الاتصال الجماعي: يتم بين فرد ومجموعته ويستلزم الاشتراك في القيم والاتجاهات والمعايير الأخلاقية والاجتماعية والثقافية، وهو يحقَق الألفة والتعارف ويساهم في توطيد العلاقات الإنسانية

4/ الاتصال الثقافي: يتعلق عادة بالقيم والاتجاهات والسلوكيات ويتم بين أفراد كثيرين.

لكن (باتيسون) سيهتم بمستويات التفاعل وبالمجموعة محل الدراسة عوض الاهتمام بالمستويات البيشخصية والثقافية وهكذا فإنَ البحث سيكون قادرا على بدء عملية من خلال المرور عدة مرات بدورة (الملاحظة والتحليل والمفاهيم) في تعزيز إيجابي متبادل: ملاحظة تسمح بإعطاء جسد للمفاهيم وفي المقابل مفاهيم تسمح بإعطاء معنى للملاحظة.

خاتمة:

شهد القرن الماضي درجة غير مسبوقة من التعقيد الاجتماعي وتزامن ذلك مع ظهور العلمنة وفي هذه الظروف فسرت البنيوية ديناميكية واستقرار الثقافة والمجتمع المعاصرين من خلال دراستها للغة وغيرها من وسائل الاتصال باعتبارها وسيط للإدراك الفردي والتفاعل الاجتماعي .

كما ساهمت البنائية في تفسير التواصل بين الثقافات من خلال تنسيق المعنى والفعل بين الثقافات ففكرة البنائية مهمة في سياق (بين الثقافات) وسياق (تعدد الثقافات) لأنهَا تساند التكيَف الثقافي .

المراجع:

د. عبد الله بن معمر: ميادين الأنثروبولوجيا ج3 انثروبولوجيا التواصل والمرض،دار ومضة،2022

إيف وينكن: أنثروبولوجيا التواصل من النظرية إلى ميدان البحث، ترجمة خالد عمراني ، هيئة البحرين للثقافة والآثار، 2018

Yves Winkin: Approche systémique et constructiviste de la communication, conférence au séminaire national de Paris: le baccalauréat STG une voie vers la poursuite d’études;10,11et 12 janvier 2005.

Denis Benoit: le constructivisme en communication une évidence à revisiter, revue (questions de communication),5/2004,p185/202, journals.openedition.org